مركز نماء للبحوث والدراسات
Nama Center for Research and Studies
نماء وانتماء

وعي
نحو ثقافة مؤصّلة

علم الاستغراب

مجلة علميَّة محكَّمة تصدر سنويًا عن مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث.
تعنى بجميع شؤون الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثر

مواضيع العدد:

مراكز البحث في إسرائيل وتأثيرها في دائرة صنع القرار
د.صالح نعامي

نحو منهجية مقترحة لعلم الاستغارب
د. نايف بن نهار

مدرسة التفكيك
أ.د.عز الدين معميش

قراءة الغرب من منظور مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي
- مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري نموذجا-
أ.د.عبد القادر بخوش

استغراب بلا اغتراب ولا غربفوبيا
أ.د.عدنان المقراني

العدد الأول

مجلة علم الاستغراب

مجلة علمية محكمة تصدر عن "مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث"

تعنى بجميع شؤون الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثر

مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث

- البريد الالكتروني : wa3efoundation@hotmail.com
- الموقع الالكتروني : www.wa3efoundation.net

مركز نماء للبحوث والدراسات

- البريد الالكتروني : info@nama-center.com
- الموقع الالكتروني : www.nama-center.com

مجلة علم الاستغراب

- المشرف العام : د. نايف بن نهار
  رئيس مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث
  والعميد المساعد لشؤون البحث والدراسات العليا بجامعة قطر
- رئيس التحرير: أ.د عبد القادر بخوش
- لجنة التحرير :
  أ.د عز الدين معميش
  أ.د محمد أمزيان
  أ.د ثناء الندوي
  د. أحمد زايد
- المراجعة والإخراج الفني: خالد التايدي
- البريد الالكتروني للمجلة: wa3efoundation@hotmail.com
- الموقع الالكتروني : www.wa3efoundation.net

فهرس المحتويات

المستهل

- كلمة المشرف العام — 7
  د.نايف بن نهار
- كلمة رئيس التحرير — 13
  أ.د عبد القادر بخوش

في البنية النظرية

- نحو منهجية مقترحة لعلم الاستغراب — 18
  د.نايف بن نهار

في البنية العملية

- مراكز الأبحاث في إسرائيل وتأثيرها على دائرة صنع القرار — 47
  د. صالح النعامي

مقاربات

- قراءة الغرب من منظور مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري نموذجا — 90
  أ.د عبد القادر بخوش
- مدرسة التفكيك — 114
  أ.د عز الدين معميش

مقالات

- استغراب بلا اغتراب ولا غَرْبَـفُوبيا — 136
  أ.د عدنان المقراني

مدرسة التفكيك

الأستاذ الدكتور: عز الدين معميش
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة قطر

مقدمة:

يُعد التفكيك من المناهج الجديدة في عالم دراسة النصوص وتتبع الأفكار وتاريخها؛ حيث حاول مؤسسوه طرْق محاور جديدة ومناقشة رؤى مبتكرة في عالم التحليل النصي، والذي أصبح له من الاهتمام ما غيّر أولويات الدراسات الاجتماعية والإنسانية وحتى النفسية. فقد شكّلت المدارس الحداثية وما حملته معها من هزّات سياسية واجتماعية وثقافية عنصرًا هامًا، وبل وأساسيًا، في ذيوع صيت فلسفة التحليل النصي الجديد في فرنسا وخارجها؛ وجد فيها النقاد ملاذًا بعد خيبة الظن في ليفي ستروس ومدرسته البنيوية في مناحيها المعرفية ومواقفها السياسية والإناسية.

وقد تبنى معظم النّقاد الأمريكيين بعشق شديد مناهج جديدة قائمة على العلامات الخفية وانفكاك الدال عن المدلول وتقويض مفهوم الهوية؛ وصل إلى درجة التنظير والتأطير، خاصة لدى أعمدة جامعة (ييل) كدي مان، ووف، وسابير،... وغيرهم، والأمر نفسه ينطبق على النقّاد الألمان والروس ثم الانجليز .

وكان للجو الفلسفي المتذبذب في أوربا، دورٌ مهم في شيوع أنماط جديدة من النقد في الفكر الغربي؛ حينما سيطرت فلسفة الشك على كل الميادين ابتداءًا من الحرب العالمية الثانية، وتبلور رؤية مطلقة تقول بنسبية المناهج والقراءات، ونسبية الخير والشر، وولادة ما اصطلح عليه بالأزمنة الحديثة، وهو الزمان الذي يقوم على تجاوز فلسفة الميتافيزيقا والحضور، ويهدف إلى ترجيح الأنساق الخارجية على الذات في مستويات النص والإنسان والحضارة والتاريخ، ويوظِّف كل أدوات الشك لتحطيم المرجعيات والمطلقات والسكونيات؛ أخذًا بمبدأ المنفصل والمنبثق أصلاً عن نظرية تجريبية.

ولعل المدرسة التفكيكية، من أبرز المدارس التي سيطرت على الأنماط الجديدة في الفكر الغربي، وكان لها الدور الأبرز في صياغة رؤى جديدة، أثرت في الثقافة والسياسة والاجتماع، ونقلت الحضارة الأوربية إلى مرحلة لم تعرفها من قبل؛ أطلق عليها بمرحلة ما بعد الحداثة، حيث تجاوزت جل المفاهيم الحداثية المؤسسة طيلة قرون الأزمنة الحديثة.

المدرسة التفكيكية، من أبرز المدارس التي سيطرت على الأنماط الجديدة في الفكر الغربي، وكان لها الدور الأبرز في صياغة رؤى جديدة، ، ونقلت الحضارة الأوربية إلى مرحلة لم تعرفها من قبل

وقد برز بداية، وعلى نطاق واسع وقبل ظهور التفكيكية، مصطلح النقد؛ والذي لقي اهتمام العديد من النقاد، فهو موضوع دقيق وهام، وذو اتصال وثيق بالفلسفة، والتاريخ، والسياسة، وعلم الاجتماع... وغيرها من مجالات حياة الإنسان، وينزل منزلة رفيعة في المشروع النقدي العالمي، «أساس لكل ما نراه من خلل أو انحراف أو ضبط منهجي»[١]. وفكرة المشروع غلبت على الخطاب النقدي الأنجلو أمريكي مع المفكر الأمريكي (جون كرو رانسوم) [٢] في كتابه **The New Criticisme**. حيث صار عنوان كتابه فيما بعد عنوانا للمدرسة، والتي عُرفت بمدرسة النقد الجديد[٣]، ومن أشهر روادها، طوماس إليوت، آلان تيت، سبنجارن، وغيرهم. وتلتبس هذه المدرسة بنظيرتها الفرنسية، خصوصا من خلال المحاورات التي دارت بين النقاد الكلاسكيين والنقاد الحداثيين، حيث شاع عندهم مصطلح «النقد الجديد» بصبغته الفرنسية **(nouvelle critique)** خلال الستينيات من القرن الماضي[٤].

---

(١) خلدون الشمعة: **المنهج والمصطلح _ مدخل إلى أدب الحداثة**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٩،ص٤٩.

(٢) محمد غنيمي هلال: **النقد الأدبي الحديث** ط١ دار العودة، بيروت ١٩٨٢، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٣) حركة نقدية أنجلوأمريكية شهيرة، سادت خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت سنة ١٩٤١سنة حاسمة في مسارها ونقطة انعطاف في تاريخ النقد العالمي برمته، لأنها السنة التي ظهر فيها " إنجيل " هذه الحركة ؛كتاب جون كرو رانسوم jhon crowe ransom الذي صار عنوانه اسما للمدرسة كلها؛ مدرسة (النقد الجديد)

(٤) محمد غنيمي هلال: **النقد الأدبي الحديث** ط١ دار العودة، بيروت ١٩٨٢، ص ٣١٨.

هذه الجهود؛ رسمت الطريق للعديد من المهتمين بالنظريات الغربية الحداثية، أو المناهج النقدية الجديدة، كالبنيوية والتفكيكية والأسلوبية والسميائية. وتجلى هذا النقد بشكل واضح في السبعينيات من القرن الماضي، في كتاب الفيلسوف الفرنسي ليوتارد: (**علم ما بعد الحداثة**) وعنى بها التعددية الثقافية وتعدد أنماط الحياة(٥). وعزا أسبابها إلى الثورة المعرفية فى مجال المعلومات بفضل تكنولوجيا الاتصالات؛ مما أوجد حالة فريدة في التناص والتداخل الفكري والعقدي والثقافي، ساعدت فى نقل الفكر من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، وهو الذي دفع ببعض النقاد في تلك الفترة إلى نعي مشروع الحداثة بمدارسه المختلفة، وأنه وصل إلى نهايته، وما علينا إلا الانتقال إلى مرحلة جديدة وفكر جديد؛ اصطلح على زمانه بمرحلة ما بعد الحداثة(٦). وما بعد الحداثة تقوم في الأساس على فرضية؛ وهي أنه ليس هناك حقيقة خارج الذهن، مشككة في أن يكون العقل قادرا على الحكم الموضوعي، وإنما يكمن دور العقل في بناء الحقيقة، ولا يكتشفها، فالحقيقة بنية ثقافية، تنبني بداخل الإنسان بفعل ثقافته ولغته(٧).

في هذا الجو استطاعت التفكيكية أن تحتوي النقد الجديد وتسيطر على مجالاته، وأصبحت مسارات القراءة المعاصرة تحت سياقات التفكيكية، وبلورت مفهوما في النطاق التاريخي يقوم على دمج الوعي الجديد في عملية توليد الدلالة والوصول إلى المعنى، بما يجعلها متغيرة ومتحولة باستمرار ومحاكية للواقع ومتماشية معه، طالما أن الوعي الجديد غير مستقر بسيرورة الحركة والزمن.

هكذا كان ميلاد التفكيك؛ وفقا لسياقه البيئي والتاريخي، وقد ظهر للنقاد معقولا ومقبولا وفقا للسياقين اللذين كان يغلب عليهما فكر العدم والنسبية.

- **فما حقيقة التفكيك؟**
- **وماهي سياقاته ومجالاته وأدواره ؟**
- **وما قيمته في بنية العقل الغربي ؟**
- **وهل يشكل اليوم المجال الأوسع في ساحة فكر الآخر الغربي ؟**

➢ هذا ما ستجيب عنه هذه الورقة في أربعة محاور بحول الله.

---

(٥) **إشكالية المنهج في العلوم الاجتماعية العربية المعاصرة**. عبيد الله العمري، و عبد القادر العرابي. كتاب الرياض ٩٩، ١٤٢٢.

(٦) أحمد مجدى حجازى، **النظرية الاجتماعية فى مرحلة ما بعد الحداثة**، قضايا فكرية، اكتوبر/١٩٩٩، مرجع سابق ، صـ٢٩٥

(٧) ينظر: **مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة**، محمد الشيخ و ياسر الطائري. ١٩٩٦ دار الطليعة بيروت،ص.٣٥.وكذلك **المناحي الجديدة للفكر الفلسفي**. سالم يفوت. دار الطليقة: بيروت،(١٩٩٩)، ص.٨٧.

المحور الأول: دلالة التفكيك

أولا: الدلالة اللغوية

يعني التفكيك في معاجم اللغة العربية؛ الانفصال والتشتُّت والخلاص والتجزئة والضعف والهوان والزوال. أما دلالة الترجمة فهي تختلف عنها شكلا وتلتقي مضمونا، من حيث إن الترجمة الحرفية للّفظ موجودة في الانجليزية دون الفرنسية، وهو ما يُدعِّم الرأي المتمثل في كون هذا اللفظ كمصطلح أطلقه النقاد الأمريكيون ولم يكن معروفا في المجال التداولي الفرنسي ولدى مؤسس التفكيك أو على الأقل لا يستعمله كدلالة على منهجه، لأن المصطلح المنتشر في الأوساط الفرنسية هو الاختلاف **(Difference)** وعرفت المدرسة باسم (فلاسفة الاختلاف).

في «المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية» لجميل صليبا: (التفكيك **(dissociation)** عند علماء النفس هو انفصال العناصر الذهنية عن بعضها، فالعنصر المرتبط بأحد الأشياء مرة وبغيره أخرى يميل إلى الانفصال عن كل منهما حتى يصبح عنصرا مجرّدا كما في التجريد، فإن التجريد ناشئ عن تفكّك الصور الذهنية المترابطة، ويمكن تسمية ذلك بقانون التفكّك: **(Loi dissociation)** [٨]

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن من المعاني الأساسية للتفكيك في المعاجم العربية: الانفصال، فإن جزءًا هاما من الأساس المفاهيمي للتفكيك سوف يأخذ مشروعيته من اللغة.

ولننتقل إلى معنى آخر يتضّمنه التفكيك؛ وهو الاختلاف الذي يستخدمه (جاك دريدا) كثيرا، خاصة في المرحلة الأولى من عمر المدرسة، فإن الاختلاف في الفرنسية على حسب الاستعمال الأصلي **(Difference)** واستنادا إلى كشف الدلالة المعجمية لهذه الكلمة حسبما وردت في كتابات دريدا[٩]، يمكن اكتشاف عدة مفردات لها حقول دلالية تؤلف نسيج ذلك المصطلح، وهي جميعا أفعال ذات خواص زمانية ومكانية.

---

(٨) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ٣١٦/١.

(٩) انظر مثلا: **الكتابة والاختلاف**، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،ط١، ١٩٨٨ ص٢٣ ،٦١، ومواقع:**حوارات مع جاك دريدا**، ترجمة وتقديم فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١ ، ١٩٨٨، ص٢٧-٢٨.

وقد ذهب بعض المترجمين إلى تفضيل لفظ (التقويض) على (التفكيك) لعدة أسباب [١٠]، نذكر من هذه الأسباب: أن التقويض على نقصه لا يلتبس بمفهوم «ديكارت» وميكانيكية تفكيكه للمفاهيم[١١]، كما يتناسب مفهوم التقويض مع الاستعارة التي يستخدمها (دريدا) في وصفه الفكر الماورائي الغربي، إذ يصرّح بأنه معمار يجب تقويضه. والناظر بعمق في المسألة يجد أن رأي هؤلاء المترجمين ومن سار سيرهم ضعيف من وجهات عديدة، سواء من حيث دلالة الترجمة والاستخدام، أو تاريخ هذا المذهب، وحتى من وجهة مفهوم التفكيك، فقد اعتبروا أن مقولة التفكيك تنبني على هدم وبناء، وهو ما لا نجده عند دريدا وأتباعه، ولا في دلالته اللفظية، بل يدلّ على التشتيت والفصل والتجزئة ببطئ وإرجاء بما يرادف التواني في معاجم اللغة، وهو ما يصلح لعملية فكرية ضخمة كفكرة دريدا، فالزمان والمكان عنصران أساسيان في قاموس التفكيك، لأن إعاقة اللحظات الزمنية لتعطيل المعنى والعمل للوصول إلى الفراغ والفضاء، أي اللامعنى؛ من أبرز أهداف التفكيك.

فالهدم والتدمير والتحطيم والتقويض من الخواص النهائية للتفكيك أو المحصّلة التي يرمي إليها هذا المشروع للوصول إلى الحالة الموضوعية القصوى في أي قراءة أو بحث؛ وهي حالة لا نهائية المعنى، مما يجعل الواقع دائما حسبهم في ديناميكية معرفية مستمرة، ويتيسّر تقويض الميتافيزيقا الغربية التي تمثل حسب دريدا القوة المدمّرة للوعي البشري[١٢] .

ويلاحظ أن التفكيك لم يقم من فراغ، بل عبر جذور فلسفية عميقة، فإذا جمعنا ما تمّت ترجمته من العربية إلى الأجنبية ومن الأجنبية إلى العربية؛ فإنّنا نحصل على عدة معان أساسية في منظومة التفكيك سيكون لها الشأن الأكبر في شرح محتوى وبرنامج هذه المدرسة، وهذه المعاني هي: (الانفصال–التجزئة–المغايرة–الاختلاف–الإعاقة–التأجيل–التأخير–التشتيت–البعثرة–التفرّق–التواني–الانتشار–الانحلال) فإذا قارنّاها بين ما كنا حصلنا عليه من المعاجم العربية، فإن الصورة ستتضح كلية في الكشف عن حقيقة هذا اللفظ لغة، وسوف تتعدى الدلالة اللغوية إلى دلالة الاصطلاح، وكل هذه المفردات من ميزات فلسفة التفكيك، والتفاوت بينها في درجة الاستعمال على حسب البيئة والظرف والإنسان.

---

(١٠) انظر مثلا: **دليل الناقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠ ،ص٥٣.

(١١) ميكانيكية تفكيك المفاهيم: هذا المصطلح يحيل إلى انفساخ المفاهيم سببيا أو ميكانيكيا دون تدخل خارجي؛ وبذلك فهو تأييد لمذهب البنية الذي أصّله دي سوسير.

(١٢)انظر: دريدا، **في علم الكتابة**، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة،٢٠٠٥، ص١٢، **وهوامش الفلسفة** marges de la philosophie.minuit . Paris.1972.p17.

ثانيا: الدلالة الاصطلاحية

عُرف التفكيك في مرحلة من تطوّره في الستينيات بالتحليلية البنيوية(١٣)، ولقد كان دريدا بنيويا خالصا، ومن أخلص تلاميذ ستروس، حيث اقترب كثيرا من تبنى فكرة وجود إشارات مجازية بين بُنى النصوص، وأن النص ليس بنية مستقلة ومجسّمة، بل تتحكم فيها الأنساق والمرجعيّات المختلفة التي تصنع الذات القارئة، إضافة إلى وجود بنية اختلافية كبرى داخل جسد النص(١٤).

فهو صيغة لنظرية النص والتحليل تقرأ قراءة مستمرة مفصّلة ومجزّأة تحلّل الأفكار الموروثة عن العلامة واللغة والنص والسياق ودور التاريخ وعملية التأويل والتفسير وأشكال التعبير والكتابة(١٥)، إن هذه الممارسة المتحوّلة إلى منهج صلُحت كنظرية في سياقها الغربي؛ لكونها باحثة عن البُنى الثابتة أو العوالم المنهجية التي تعكس القدرات البشرية ومحاولة قراءتها بطريقة لا نهائية عبر مرايا متجاورة، ومنه لجأ بعضهم إلى اعتبار التفكيك صيغة لنظرية النص(١٦).

ويعتقد الخبير الاجتماعي والفيلسوف «كريستوفر نورس» أن التفكيكية في جزء منها ردّ فعل إزاء نزعة البناء في الفكر البنيوي(١٧)؛ ممّا يعني أن أقوى مفاهيم التفكيكية يتلخّص في تحطيم مفهوم البناء «عند ليفي ستروس» والتي تخدم مهمة تجميد التلاعب بالمعاني في النص وتقليل ذلك في نطاق يمكن السيطرة عليه.

ويمكن عد التفكيكية تجربة تأويلية؛ لأن اللغة لها فسحة واسعة للتفسير والقراءة وفق قواعد مجازية تنتفي معها هواجس المطابقة أو البحث المستميت عن النّسب بين الشيء وصورته أو الدّال ومدلوله، لأن الأمر يتعلق فقط بمجال للحركة والتداول وحلبة للصراع والتقابل إلى أن تصبح ظاهريّا التأويلات غير عقلانية، أي غير برهانية وإنما فقط جمالية أو مجازية أو بلاغية، فاللغة تكون منبعا للدّلالات المتفجّرة وحقلا لإنتاج الاستعارات والمجازات ومختبرا لإثراء الخيالات وحيّزا هاما لممارسة أنواع الكتابات. وبذلك فالعملية التأويلية للتفكيكية سيرورة عدمية، وهي قبل كل شيء انتفاء التأسيس أو الأصل بعد أن كان التأويل –سابقا– نمطا للوجود وليس نمطا في المعرفة أو العدم.

العملية التأويلية للتفكيكية سيرورة عدمية، وهي قبل كل شيء انتفاء التأسيس أو الأصل بعد أن كان التأويل سابقا نمطا للوجود وليس نمطا في المعرفة أو العدم

(١٣) انظر: وليام راي ، **المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيك**، ترجمة يوئيل عزيز، دار المأمون، بغداد،١٩٨٧، ص٥.

(١٤) انظر: جوناثان كولر، التفكيك، مجلة فصول، القاهرة، عدد٦٦، ربيع٢٠٠٥، ص٩٦-٩٧.

(١٥) عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت،ط١، ١٩٩٨،ص٢٩١.

(١٦) انظر: المرجع السابق، ص٢٩١.

(١٧) انظر: كريستوفر نورس، **التفكيكية النظرية والتطبيق**، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٩٢ ، ص ٧ .

المحور الثاني: الأسس المعرفية للتفكيك

رغم الطابع الهدمي والعدمي لمشروع التفكيك، إلا أن مؤسسيه شيدوا له أسسا معرفية أصبحت متداولة ومقبولة نوعا ما في الوسط العلمي اللغوي والفلسفي والتاريخي والاجتماعي. فقد كان إقامة مبدأ الاختلاف الذي هو عماد الفلسفة التفكيكية مستندا إلى مبدأي فهم (سوسير) للعلامة اللغوية: ـ الاعتباطية ـ والتفاضل. والمقصود **بالاعتباطية**؛ اعتباطية الإشارة ضمن ثنائي الوحدة اللغوية التي تتألف من عنصرين، وأن فكرة: (الأخت لا ترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب الأصوات (أ خ ت) التي تقوم بوظيفة الدال) (١٨). ويمكن التعبير عن الفكرة الأخيرة باستخدام أي تعاقب صوتي آخر، وإنّ أمر اختيار الدّال ليس متروكا كليّا للمتكلم، ولا يرتبط بدافع، وليس له صلة طبيعية بالمدلول، وهو ما فهمه دريدا بكون العلاقة كيانا سلبيّا لا يمتلك أيَّ قيمة إيجابية بذاته؛ وهي المسألة التي اتخذها فرضيّة أولى انطلقت منها تعاليمه ورؤيته الجديدة التي طرحت على وفق سياق محدّد أهّلها لتكوين فلسفته في الاختلاف والتفكيك. أمّا **التفاضل**؛ فهو يعني انتفاء العلاقة الداخلية لتعاقب الأصوات بالفكرة، وانتفاء المناسبة التي تجعل من هذا الدّال المحدّد معبّرا عن هذه الفكرة المحدّدة؛ الأمر الذي يعني الإمكان الكامل لأن يكون أيُّ دال آخر معبّرا عن الفكرة نفسها التي عبّر عنها ذلك الدال الذي جرت العادة على التعرّف على الفكرة من خلاله؛ إذ ما من دال أفضل من غيره للتعبير عن هذه الفكرة أو سواها، الأمر الذي يعني أن الدال لا يحمل بداخله أيّ صفة ذاتية تسبّب اختياره هو بالذات لأن يكون ممثلا لهذه الفكرة ذاتها(١٩).

وهكذا انطلق دريدا من فكرة عدم تطابق العلامة مع غيرها، وهو هويتها الوحيدة التي ستتعرض لمقارنة الآخر بها، وهكذا ستسفر كل علامة عن نفسها بعد مقارنتها بآخرها: وبذلك ستتميّز كلّ من العلامتين عن الأخرى بالارتداد إلى ذاتها بعد التأكّد من عدم التطابق مع الآخر، والتأكّد أيضا أن الآخر شبيه بحالها تماما، لأنه يحمل الصفة الغريبة عن نفسه مثلما تحمل هي صفتها الوحيدة: (أي: عدم تطابقها مع غيرها) (٢٠) فقد شهدا معا الاختلاف الذي يدلّ على عدم امتلاكها أي قيمة ذاتية.

---

(١٨) علي مرزوق، **فلسفة البلاغة العربية**، طبعة كلية الدراسات الإسلامية، الأوزاعي، بيروت، دون تاريخ، ص٩٢، ودي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٥، ص١١٢.

(١٩) انظر: ليفي ستروس، **الإناسة البنيانية**، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص٤٤، وعادل عبدالله، **التفكيكية: إرادة الاختلاف وسلطة العقل**، ص٤٢.

(٢٠) دريدا، **الكتابة والاختلاف**، فصل (رسالة إلى صديق ياباني)، م س، ص٥٨.

وعلى كل حال، فإن الأساس الفلسفي واللغوي للاختلاف؛ أوجد حالة فكرية جديدة داخل الوسط الثقافي سرعان ما تبنّاها عدد معتبر من النخب في أوربا، وخاصة في ألمانيا(٢١) ثم فيما بعد بأمريكا بعد صدور الترجمات الإنجليزية(٢٢)، ولحدّ الآن لم يولد التفكيك كمصطلح علمي وفلسفي بعد، وقد ساهمت الترجمات الإنجليزية المذكورة ثم شروح الطلاب المتحمسين لدريدا في أمريكا، كدي مان وسابير ووف وغيرهم من جامعة «ييل»، وقد أعجب دريدا بهذا المصطلح وتبنّاه سريعا، كون الاختلاف لم يسع المبادئ الضخمة التي يحملها المشروع الدريدي، ولذلك ارتأى الباحث الأمريكي (بول دي مان)(٢٣) أن يكون مصطلح «التفكيك» الأليق لحمل منهج القراءة الجديد لعدة اعتبارات فنية واصطلاحية وعلمية، وقد تمّ بالفعل قبول هذه الفكرة بسرعة، وأصبح المتداول في الساحة الثقافية على نطاق واسع.

إن التفكيكية تدرس، قبل كل شيء، النصوصَ وتحاول قراءتها واستنطاقها أيّا كان قائلها، وأيّا كان منبعها، فالنص واحد من حيث إن:"بنيته لفظية وكلامية وإشارية"(٢٤) يمكن الغوص في أعماقه وخلخلته طبقا لفعاليته في الواقع ونجاعة منطوقه وتجاوبه مع المتغيّرات، فكونه يستنطق ويهزّ البنى الداخلية اعتبرناه قراءة فعّالة، وكونه يستمد منهجيته من الواقع المتغيّر وصلناه بالفلسفة، قال دريدا عن فعّالية ما بداخل النص وخارجه:"أعتقد أن ثمة بين خارج النص وداخله توزيعا آخر للمجال أو الحيّز، وأعتقد أنه سواء في القراءة الباطنة أو في القراءة التفسيرية للنص عبر مسيرة الكاتب أو تاريخ الحقبة يظل شيءٌ ناقص دائما"(٢٥)

التفكيكية تدرس قبل كل شيء النصوص وتحاول قراءتها واستنطاقها أيا كان قائلها، وأيا كان منبعها

---

(٢١) يفسّر ذلك بعلاقة دريدا القوية بفلسفة هيغل وهيدغر الألمانيين، وخدمته الرائعة لفلسفة الأخير.

(٢٢) انظر: نورس، **التفكيكية: النظرية والتطبيق**، ص١٠٠-١١٤، وماهر شفيق فريد، **ما التفكيك**، مجلة فصول (المصرية)، ربيع ٢٠٠٤، عدد٦٣، ص٣٣٢-٣٤٦.

(٢٣) انظر: عبدالعزيز حمودة، **المرايا المحدّبة**، ص٣١٢. ونورس، المرجع نفسه، وماهر فريد، المرجع نفسه.

(٢٤) انظر: محمد مفتاح، **المفاهيم معالم :نحو تأويل واقعي**، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩، ص١٦-٢٦، فقد فصّل المؤلف في مرجعيته. وانظر: هيو سلفرمان، **نصيات بين الهيرمينوطيقا والتفكيكية**، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء-بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص٥٦.

(٢٥) دريدا، **الكتابة والاختلاف**، ص٥١.

وتولّد عن فكرة الكتابة وإزاحة المعنى، والاشتغال بهما؛ فك الارتباط بالضرورة بين الكلمة والفكرة وإفساح المجال لتدخل القارئ في تحديد المعنى، وهو ما أدى بالضرورة إلى محاولة البحث عن الأنماط الممكنة المتعدّدة له التي يقدمها النص للقارئ من خلال عملية الاستنطاق، ومن شأن التعدّد والاختلاف في المعاني أن يمنح الخطابات قوة خاصة؛ لأنه يحرّرها من الاقتران بغرض معيّن، فتصبح اللغة مدارا لآفاق ذات دلالات كثيرة، وينفتح القارئ على رغبة اللغة، ويبدأ البحث عمّا هو مغيب فيها، ودون رغبة حقيقية للنص أو ما يسمّيه دريدا: (عشقا حقيقيا) لا يمكن أن تتوفّر أرضيّة مناسبة للقراءة؛ فلا بدّ من وجود رغبة ومشاركة بين القارئ والنص، وهي (اللذة) التي أراد التفكيك تحقيقها في اقتراحه قراءة متعدّدة الأوجه للنصوص الأدبية والروايات والخطابات البشرية(٢٦).

وهكذا انتقلت التفكيكية لتصبح صيغة لنظرية النص والتحليل تبحث عن العلامات والسياقات ودور المؤلف والقارئ والتاريخ وعملية التفسير وأشكال الكتابة النقدية، يقول الناقد نورس: "إن كتابات دريدا تبدو أكثر تجانسا مع النقد الأدبي منها إلى الفلسفة، وهي تستند إلى فرضية أن أساليب التحليل البلاغي المطبقة حتى الآن، وبشكل رئيس على النصوص الأدبية، لا غنى عنها لقراءة أي نوع من المعالجات"(٢٧).

إن كتابات دريدا تبدو أكثر تجانسا مع النقد الأدبي منها إلى الفلسفة

ووصل دريدا إلى نتيجة حاسمة؛ وهي رفض منح الفلسفة حالة الامتياز المنهجي التي تطالب بها دوما باعتبار أن لها القدح المعلّى المختزن للاستنتاجات، فقد واجه هذا الادّعاء بصرامة، وبيّن أن الفلاسفة قادرون على فرض طرقهم في التفكير انطلاقا من الأدب عبر قراءات نقدية تغلق وتهمل بمهارة عناصر المجاز وغيره من الأدوات الأدبية، وهو صراع صامت بين الأدب والفلسفة في أعمال دريدا بلغ مرحلته بعد قرون طويلة من الجدل، وبدت الفلسفة في أعمال المفككين انعكاسا لا نهائيا على دمارها الذاتي على يد الأدب، وأصبح في عصرهم (أي في السبعينات وبعدها) ممكنا جدّا ومؤكدًا أن النصوص الأدبية المعالجة أقل تضليلا من المعالجات الفلسفية، وتحديدا بسبب استغلالها لطبيعتها البلاغية، وهو تحوّل هام في تاريخ النقد والمناهج والأفكار في قيام نظرية معرفية في شتى المجالات تنطلق من المعالجات الأدبية(٢٨).

---

(٢٦) انظر: سلفرمان، **نصّيات**، ص١٩١، وعبدالله إبراهيم، التفكيك: الأصول والمقولات، ص٩٣.

(٢٧) نورس، **التفكيكية:النظرية والتطبيق**، ص٢٥.

(٢٨) لمراجعة هذه النقطة انظر: عبد العزيز حمودة، **الخروج من التيه :دراسة في سلطة النص** ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط١، ٢٠٠١، ص١٥٧. وصلاح فضل، **بلاغة الخطاب والنص**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٢، ص٢٣٨-٢٣٩. وسلفرمان، **نصّيات بين الهيرمنيوطيقا والتفكيكية**، مرجع سابق، ص١١٢.

المحور الثالث: مجالات التفكيك:

كانت البدايات الأولى لمشروع التفكيك، عبر مبدأ الاختلاف؛ منصبّة على هدم كيان الميتافيزيقا الغربية والماورائية المطلقة، خصوصا في أستاذها الأكبر «هيغل»، وقد ساعد النجاح الذي حصّله دريدا في هذا المجال إلى إعادة قراءة الفكر البشري القديم والحديث، منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو، وصولا إلى هيغل وماركس وهيدغر وغيرهم، وأصبح من الممكن جدا في المنهجية التفكيكية فتح جميع المغلقات ومناقشة الثبوتيات وتخطّي التقاليد بل وتحطيمها طبقا لمفهوم النص الجديد، فجميع نصوص المفكرين السابقين قالت أشياء وسكتت عن أشياء، ومهمة دريدا وأتباعه إبراز المسكوت عنه فيها، فإذا كانت كل الكتب تقول الحقيقة حتى ولو أدّى ذلك إلى تناقضها، فإنّ كلّ كلمة فيها هي في الأصل إيحاء أو مجاز، إنها تقول شيئا آخر غير ما يبدو في الظاهر، إن كل كلمة تشتمل على إرسالية لا يستطيع الفرد وحده أن يكشف عنها، لأن المعرفة السرية معرفة عميقة، ذلك لأن ما يوجد تحت السطح هو وحده الذي قد يظل مجهولا لفترة طويلة، وعليه؛ فإنّ الحقيقة هي ما لم يُقل، أو هي ما قيل بطريقة غامضة، ويجب أن نفهم ما هو أبعد من ظاهر النص، ولا شك أن في ذلك إقامة لكيان الفلسفة والفكر على قواعد الأدب.

أولا: الدين:

لقد انطلق التفكيك في ساحة الفكر والأدب يقوّض كل ما يمتّ بصلة إلى الميتافيزيقا، ويفتت كل الثوابت والمطلقات، وأخذ ينظر إلى العالم نظرة يحكمها الشك بما يشبه المنهج الهوسي[٢٩] والسفسطائي، لقد ردّ الديانات إلى مجموعة نصوص وثنائيات متجاورة؛ تحكمها أحداث وسياقات تاريخية جد متداخلة، كاليونانية/الإسلام، اليهودية/اليونانية، المسيحية/الإسلام، اليهودية/المسيحية، اليهودية/الإسلام، والعكس صحيح، ويختلط فيها الاجتماعي بالسياسي ليشكّلا معا ناموسا مقدّسا تحتكره مجموعة من المتغلّبة، لذلك لا بد من عملية تفكيك للسياقات التاريخية وإحالتها إلى نصوص عادية بين حدّين متقابلين يتمّ فيهما التجاوز بصورة آلية؛ لنفهم حقيقة الدين في وقت تشكّله، ثم في مراحله المختلفة.

انطلق التفكيك في ساحة الفكر والأدب يقوّض كل ما يمتّ بصلة إلى الميتافيزيقا، ويفتت كل الثوابت والمطلقات،

وقد تولّد عن التفكيك التاريخي؛ منهج ما بعد حداثي يسمّى بالتاريخانية، يمّت بصلة مباشرة إليه ويدين له بالولاء المطلق، وإن كان فيورباخ الألماني أول من أراد حسم هذه المسألة في بلورة رؤية منفصلة عن الأيديولوجيا والتقديس ومرتبطة بالواقع والسياق.

لقد شكلت الديانات بفروعها مادة خصبة لمدى فعّالية المنهجية التفكيكية، فبعد النجاحات الباهرة على مستوى الأدب والفكر والاجتماع، جاء دور النصوص المقدّسة لتنال حصتها من الهدم وتشتيت المعاني وتجاوز الأصول، وقد قام جاك دريدا بقراءة مفتوحة لكتاب «المدراش»، وهو موسوعة لتفاسير العهد القديم، جمعها المحقق اليهودي يورشالمي في ٢٠٠٠ مجلد.

تولّد عن التفكيك التاريخي منهج ما بعد حداثي يسمّى بالتاريخانية يمّت بصلة مباشرة إليه ويدين له بالولاء المطلق

(٢٩) **المنهج الهوسي**: أو الشكي؛ من الشك: وهو التردّد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، ثم إذا أضيف إلى المذهب؛ فإنه يشير إلى قول من التزموا الشك منهجا وحالة مستقرة؛ فيتردّدون دائما بين الإثبات والنفي، ويتوقفون عن الحكم ارتيابا بحجج من أهمها: الأخطاء التي يقع فيها الناس كأخطاء الحواس و الوجدان في اليقظة والمنام، وأخطاء الذاكرة وأخطاء الاستدلال، وامتناع البرهان التام. (مراد وهبة، **المعجم الفلسفي**، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط٣ ، ١٩٧٩، ص٢٣٢-٢٣٣).

ثانيا: اللغة والأدب

يعتقد الناقد الأمريكي "جيفري هارتمان" أن فصل الفلسفة عن الدراسة الأدبية لم يُفد أيًا منهما، فمن دون ضغط الفلسفة على النصوص، أو الضغط المتبادل للتحليل الأدبي على الكتابة الفلسفية يُصابُ كلٌّ منهما بالجدب، وإذا كان هناك خطر تداخل المجالات فإنه يعتبره خطراً يستحق أن نجرّبه(٣٠). وقد طبق النقاد في العالم هذا الضغط على النص؛ بغية إثارة دلالات جديدة، فاستعملوا جماليات الألفاظ ومبدأ الأثر والإرجاء وتذويب الدوال في الكليات الواحدة المتلاشية، والكفاءات التعبيرية التي لم تستغل.

فيجب ألاّ يظل القارئ حرّاً خارج النص، بل لابد أن يمارس حريته داخله؛ أي: أن يكون له دور في إنتاج المعنى؛ وهذا هو الشرط الفعال في علم جماليات التلقي، وبالمشاركة في صنع المعنى يتحوّل التركيز من موضوع النص إلى سلوك ومنهج القراء، فلا تكون مرجعية العمل القرائي إلي الموضوع أو إلى ذاتية القارئ، بل إلى الالتحام بينه وبين إشارات النص(٣١)، وتتم العملية عبر مستويين متلاحقين؛ وهما: التأويل والاستنطاق.

وبذلك تتحقق قراءة عميقة جدًا للنص؛ بإدخال عقل القارئ لإثارة الأسئلة وفك المزيد من العلامات وإثارتها وتوضيح المسكوت عنه ومحاولة الإجابة عنه. ويسمي البعض(٣٢) هذه العملية في مستواها الثاني بالاستذهان؛ وهو: عمل الذهن والخيال في المهمة التي تتشكّل فيها ذاتية القارئ ويكشتف عالما داخليًا لم يكتشفه هو في المستوى الأول.

وقد وصل "دريدا" إلى نتيجة حاسمة؛ وهي رفض منح الفلسفة حالة الامتياز المنهجي التي تطالب بها دوما باعتبار أن لها القدح المعلّى المختزن للاستنتاجات، فقد واجه هذا الادّعاء بصرامة، وبيّن أن الفلاسفة قادرون على فرض طرقهم في التفكير انطلاقا من الأدب عبر قراءات نقدية تغلق وتهمل بمهارة عناصر المجاز وغيره من الأدوات الأدبية، وهو صراع صامت بين الأدب والفلسفة في أعمال "دريدا" بلغ مرحلته بعد قرون طويلة من الجدل، وبدت الفلسفة في أعمال المفككين انعكاسا لا نهائيا على دمارها الذاتي على يد الأدب، وأصبح في عصرهم (أي في السبعينات وبعدها) ممكنا جدّا ومؤكدًا أن النصوص الأدبية المعالجة أقل تضليلا من المعالجات الفلسفية، وتحديدا بسبب استغلالها لطبيعتها البلاغية، وهو تحوّل هام في تاريخ النقد والمناهج والأفكار في قيام نظرية معرفية في شتى المجالات تنطلق من المعالجات الأدبية(٣٣) .

---

(٣٠) انظر: كريستوفر نورس، **التفكيكية:النظرية والتطبيق**، ص٢٥.

(٣١) انظر: محمود عباس عبد الواحد، **قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي:دراسة مقارنة**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٢. بتصرف.

(٣٢) محمود عباس عبدالواحد، المرجع نفسه، ص ٢٢ . ٢٣ .

(٣٣) لمراجعة هذه النقطة انظر: عبد العزيز حمودة، **الخروج من التيه: دراسة في سلطة النص**، سلسلة عالم المعرفة،ا لمجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط١، ٢٠٠١، ص١٥٧، وصلاح فضل، **بلاغة الخطاب والنص**، مرجع سابق.

ثالثا: فلسفة التاريخ

تأثّر "دريدا" وأتباعه تأثّرا لا يُنكر بتعاليم "هيغل"، وإن تمردوا عليه فيما بعد، إلاّ أن شوائب الجدل لا تزال عالقة في كثير من مفاهيم التفكيك، كالأثر وجدلية المعنى، ومفهوم الهوية، والامحّاء أو النفي، والصيرورة، والوجود، والأصل... وغيرها. وتوضيح ذلك أن الأثر عند "هيغل": هو حركة الاحتفاظ والإنهاء معًا عبر عملية التجاوز؛ أي: إنها حركة الأثر نفسها، فهيغل في الكتاب الأول من المنطق يعتبر أن التجاوز؛ تحديد جوهري يحدث في كل مكان، وكل ما يتم تجاوزه هو على النقيض، حدّ عليه التوسط، إنه (لا وجود) ولكن بمقدار ما يكون ذلك نتيجة ناجمة عن وجود، فهو ما يزال يحتفظ داخله بالتحديد الذي نشأ عنه، فبكلمة التجاوز **(AUTHEBEN)** معنيان: إنها تعني الاحتفاظ وتعني الإنهاء[٣٤].

كما أخذ "دريدا" عن "هيغل" مفهوم المحو والإمحاء في ركن الجدل الأساسي، وهو النفي، غير أنه استعمله في مجال لغوي قصد التحايل على نصوص هيغل نفسها: "فقد سهر جاك دريدا الليل كله مع فلسفة هيغل"[٣٥] مستنطقا نصوصها ومؤوّلا عبر سياسته المفتوحة. وقد تم من قبل استعمال النفي الهيغلي في نطاق مادي واقعي كحالة كينونة مجسّدة، بينما حاول دريدا بذكاء الإفادة منها بتحايل واضح من أجل الوصول إلى هدم المفهوم الهيغلي وأساس الميتافيزيقا الغربية؛ من حيث كونهما حقائق.

وإن كان يبدو على المستوى النظري؛ أن دريدا قد استفاد من هيغل، فإن الفلسفة التطبيقية لمعظم التفكيكيين خاصة الأوربيين منهم، تتجلى فيها النزعة الماركسية الواضحة من حيث إيمانهم الشديد بالواقع وتغيّره وصراع الطبقات، خاصة وأن أكثر هم يسلمون[٣٦] بالتقسيم الماركسي للواقع إلى بنية تحتية وبنية فوقية: **البنية التحتية؛** تتمثل في القوى الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات المتغيرة باستمرار بينها، من صراع طبقي مستمر بين قوى مسيطرة (رأس المال)، وقوى مغلوبة مقهورة (الطبقة العاملة)، و**البنية الفوقية؛** تتمثل في الأيديولوجيا والدين والسياسة والثقافة والقانون، فإن مكوّنات هذه البنية لا تنشأ من فراغ ولا يمكن دراستها بمعزل

> الفلسفة التطبيقية لمعظم التفكيكيين خاصة الأوربيين منهم، تتجلى فيها النزعة الماركسية الواضحة

(٣٤) هيغل، **محاضرات في الفلسفة**، ترجمة خليل أحمد خليل، طبعة «مجد» المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢، ص١١٠.

(٣٥) عادل عبدالله، **التفكيكية: إرادة الاختلاف وسلطة العقل** ، دار الحصاد، دمشق،٢٠٠٠، ص١٠٠.

(٣٦) انظر: سيدني هوك، **التراث الغامض:ماركس والماركسيون**، ترجمة كامل زهران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،١٩٨٦، ص٢٣٤، وعبدالعزيز حمودة، **المرايا المحدّبة**، مرجع سابق، ص١٩١.

عن البنية التحتية التي تحدّدها وتحكم حركتها، ودريدا نشأ ماركسيّا[٣٧]، وتعاليم مدرسته تحكمها نظريّا هذه الرؤية الماركسية من حيث تغيّر المعنى باستمرار، وتدخّل الأنساق والقراءات في تفسير وتأويل النصوص وتوجيه القوى، وكذلك في تحطيم المطلقات والأصول، والإيمان بالفراغ، فإن حقيقة كل ذلك الرجوع إلى الوعي المادي والواقعي في صناعة حياة البشر، وإن كان دريدا حاول التملّص من الماركسية في أواخر حياته في كتابه:«أطياف ماركس»، حيث أكد أن تدميره لفلسفة المعلّم[٣٨] وتوابعها (كفلسفة ماركس)، لا يعني تزكية للفلسفة البراغماتية والرأسمالية، بل هو نقد متعالي لكل حضور تسلطي يريد احتكار الحقيقة وممارسة الضغط الأيديولوجي من منطلق ميتافيزيقي.

➤ رابعا: الانثروبولوجيا والاجتماع

نقل مؤسسو التفكيك النظريةَ من قلب الأدب إلى فلسفة الذات الإنسانية عن طريق البنيوية، من خلال محاولتها التوليف بين النموذج الألسني والفلسفة الإنسانية، ثم تفسير العقل والمجتمع طبقا للبُنى الألسنية، وهي نقطة مهمة جدا استفاد منها دريدا ونقّاد ما بعد الحداثة[٣٩].

فقد كان اهتمام التفكيك بدراسة المجتمعات وأنماطها عبر نقده المركزية الأوربية؛ نابع من انثروبولوجية ليفي ستروس في دراسته العميقة لمجتمعات مُغرقة في البدائية وأساطيرها، كعمله الشهير:«النيّئ والمطبوخ»، فقد كان دريدا في غاية السرور من هذا العمل لغيّاب أية أسطورة مرجعية ذات امتياز، وبذلك إمكانية التحليل الاجتماعي من أي مكان نظرا لغياب أي «مركز»، والتخلص من الحضور الميتافيزيقي واللوغوس الغربي، وهو مبدأ مؤسس يؤخذ كمسلّمة في فلسفة التفكيك، وذو جذر بنيوي واضح[٤٠]، كما أن هذا العمل البنيوي في تحليل الأسطورة يستخدم تصنيفات معدة مسبّقا، ثم تعدّل هذه التصنيفات، ويشبه هذا المنهج ما اصطلح عليه دريدا بعمل «المحَرْتق» **(Bricoleur)**، وهو الذي يصنع أشياءه ممّا تيسّر له من قطع قديمة تبقّت من عمل آخر، ويشير بذلك إلى أن جميع مفاهيمنا متبقية من عمل آخر، ونبدأ جميعا بمفاهيم (تصنيفات) جاهزة، أنتجت في الأصل أغراضاً أخرى وتقوم بتعديلها لتوافق ما نفعله الآن: (أي: ما يفعله التفكيك في إعادة الإنتاج المستمر عبر جدلية اللفظ والمعنى وفراغ البُنى) [٤١].

---

(٣٧) انظر: محمد الشيخ، **المثقف والسلطة**، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٨٤-٩٠.

(٣٨) يقصد فلسفة هيغل؛ باعتباره سيد ميتافيزيقا الغرب.

(٣٩) انظر: هاريسون، **البنيوية في طورها الفرنسي**، مجلة الآداب الأجنبية (دمشق)، عدد ١٠٦-١٠٧، ص١٣.

(٤٠) انظر: هاريسون، المرجع نفسه، ص٢٧.

(٤١) انظر: سلفرمان، **نصيات**، مرجع سابق، ص٣٨-٤٦.

كما أن تذبذب البنيوية في تحديد معنى للنص على ضوء تغيّر البُنى؛ ارتبط بتذبذب الفكر الفلسفي من قبْل، بين الوهم والحقيقة واليقين والشك، وجاءت تفسيرات البنيوية لمعنى النص في محاولة ضبط هذا التذبذب والوصول إلى حالة قارة ومرجعية يفرّق خلالها بين هذه المفاهيم، وقد استغلت التفكيكية جهود البنيوية في ضبط معنى للنص، هل هو خارج أو داخل النص؟ في ترجيح النظرة الخارجية النسقية لإقرار التذبذب الفلسفي من جهة، ولتغليب جانب الوهم والعدم من جهة أخرى، فهو رقص على الأجناب، ولكنه في الإطار البنيوي لاستخدام مقدماتهم وتعبيراتهم(٤٢).

وقد حطم دريدا بذلك نموذج التأويلية القديمة وحتى الحديثة الذي كان قائماً على معنى أصل، يتم على ضوئه وعلاماته البحث عن معاني ثانية لاحقة، قد ينتقل واحد منها إلى مرتبة الأصلية، ونقله دريدا إلى التداولية المستمرة؛ بغية استكشاف البعد التأملي بحيث يخلق من النص الأول نصاً ثانياً يتشظى في نص آخر(٤٣). ويتحقق فقط في عالم السكون، وهو عالم الكتابة، ويصبح المعنى والمدلول أسير ذات القارئ المتغيرة بتكرر القراءة، اعتماداً على مسلمة؛ أن الذات القارئة متقولبة بالأنساق العامة السائدة في المجتمع.

ويدّعي دريدا أن منظومة القراءة هذه تمارس استشرافاً لآفاق أبعد وأرحب وأكثر مصداقية من الحقيقة الأولى المزيفة؛ فكل معنى يسكنه معنى متشظي، وكل وعي يسكنه لا وعي، وإذا أردنا فكر الثبات والأصل قتلنا الحقيقة في خطواتها الأولى، بأن سجنا المدلول في الدال لأول لغة وإشارة، وذلك كبير على الحقيقة النسبية(٤٤). وهذا بالضبط ما سبق للفكر الهرمسي أن شغل به العالم القديم حين أكد أن اللغة بقدر ما تكون غامضة ومتعددة بقدر ما تكون غنية بالرموز والاستعارات؛ انطلاقاً من فكرة كانت رائجة عن الأفلاطونية الجديدة أننا لا نستطيع معرفة الله من خلال حدود مألوفة؛ فولدت الهرمسية فكراً جديداً يقول بأن التشابه والتداخل الكوني وليد انبعاث إله في الكون، إلا أن أصل هذا الانبعاث هو الواحد غير القابل للمعرفة، ويعد هذا الواحد بؤرة التناقضات في ذاتها، واللغة بغموضها تكون قادرة على تعيين الله الذي يحتضن هذه التناقضات في المكان والزمان الذي تريد وفي الهيئة التي تريد. والخلاصة؛ أن ما يشكل احتفاء به بتطابق التناقضات هو نفسه ما يؤدي إلى انهيار مبدأ الهوية؛ وهي ممارسة مثالية افتراضية رمزية وصلت إليها الهرمسية، وتبعتها التفكيكية(٤٥).

---

(٤٢) انظر: عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدّبة**، مرجع سابق، ص٩٦.

(٤٣) انظر: عقاب بلخير، **السيمياء والمناهج الأخرى، كتابات معاصرة**، بيروت، عدد ٤٠، ص ١٠٤.

(٤٤) انظر: دريدا، **الكتابة والاختلاف**، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٤٥) انظر: أمبرتو إيكو، **التأويل بين السيميائيات والتفكيكية**، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص ٣٣.

وإذا كان هذا هو الحال في لعبة الدوال والكلمات، في أن لها أصلاً هرمسياً؛ فإن إمكانية نقضها تكون في متناول أي مستكشف لتاريخ هذا المتن، فالمعرفة الهرمسية حافظت على وجودها طيلة القرون التي حاولت فيها العقلانية المسيحية إثبات وجود الله، عبر نماذج برهانية مستوحاة من مفهوم الحد المطروح **(medus ponens)**، واشتهرت على شكل ظاهرة هامشية في أعمال بعض الطوائف اليهودية[٤٦]، وفي أحضان ما تبقى من الأفلاطونية الجديدة في القرون الوسطى[٤٧].

وعند ذكرنا للقبالاه؛ لابد من التذكير أن الكثير من تعاليم التفكيكية في نفي المعنى وفصل الدوال يلتقي مع التعاليم والمفاهيم القبالية؛ التي تعبر عن التراث الصوفي الحلولي اليهودي، الذي يوحد بين الخالق والمخلوق، فتختفي المسافة بينهما، ويلتحمان ويكونان جوهراً واحداً؛ بحيث لا يكون للواحد أي وجود دون الآخر، وهي حالة وحدة الوجود[٤٨]. وإذا أخذنا كما يذكر عبد الوهاب المسيري مثلاً «مفهوم الاختلاف»؛ فإننا نجده مفهوماً أساسياً في اليهودية، فالإله في هذه الديانة ليس بشراً ولكنه ذو سمات بشرية، وهو مطلق يتجاوز الطبيعة والتاريخ، ولكنه نسبي لأنه مقصور على اليهود، دائم التدخل في الطبيعة والتاريخ، بل ويحل في الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي[٤٩]. ويضيف المسيري إمعاناً في تبيان العلاقة مع القبالاه وموافقة للكاتب الإيطالي إيكو الذي يثبتها بعرض متسلسل شيق؛ بأنه في التراث القبالي: (الله هو الأين سوف ـ الذي لا مثيل له) ولكنه أيضاً: (الأين ـ اللاشيء): والكلمتان عندهم: مكوَّنتان من الحروف والأصوات نفسها تقريباً؛ وخلاصة جمْعها أن الإله: (لا هو هذا ولا ذاك، ولا هو بالغياب ولا هو بالحضور، أو هو الغياب والحضور في الوقت نفسه)[٥٠].

الكثير من تعاليم التفكيكية في نفي المعنى وفصل الدوال يلتقي مع التعاليم والمفاهيم القبالية؛ التي تعبر عن التراث الصوفي الحلولي اليهودي

---

(٤٦) خاصة في أعمال الخمياويين والقباليين.

(٤٧) انظر: إيكو، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٤٨) انظر: المسيري، **الحداثة وما بعد الحداثة** ؛ بالاشتراك مع فتحي التريكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٣، ص ١٣١.

(٤٩) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣٢.

(٥٠) المرجع نفسه.

المحور الرابع: توسع التفكيكية

لقد تصدّى لمشروع التفكيك ثلة من المفكّرين جمعهم الإحباط وعدم الثقة في المطلقات، والحقائق والإيمان بالغياب واللاحدود؛ كمبدأ مرجعي للحدّ من هيمنة وتسلّطية الفكر الماورائي الغيبي، وتوزّعت هذه الجهود بين أمريكا وأوربا، فرنسا بالخصوص، خاصة بعد اندثار حلقة براغ الشكلانية(٥١)، والتي تأسّست على خلفية الصراع بين التيار الماركسي والنقّاد الجدد من البنيويين(٥٢)؛ وهو وضع شبيه لمأساة ذلك الرّجل الذي قيّض له أفلاطون في «جمهوريته» الخروج من الكهف، فتمّت له رؤية الأشياء على حقيقتها تحت نور الشمس، ثمّ بعد عودته إلى الكهف بدأ الحديث إلى أولئك الذين لم يزالوا مقيدّين بالسلاسل والوهم والظّلال، عن ذلك العالم الحقيقي للأشياء، العالم البديل لعالم الظّلال، وهو أمر لا سبيل إلى إيصاله لهم لانتفاء تصوّر مثل هذا العالم أوّلاً، ولأنّ العالم الحقيقي الوحيد لديهم هو عالمهم ذاك، عالم الظلمات، المسكن الذي يقيمون فيه منذ الطفولة مقيّدين بالسلاسل كما يرد في المحاورة(٥٣).

إلاّ أنّ النقاد الجدد تجاوزوا محاورة أفلاطون، فلم يستكينوا للإقناع الخطابي والوصف فقط، بل عمدوا إلى هدم وتدمير ذلك الكهف والمسكن، وأخرجوا هؤلاء الناس إلى عالم ما بعد الحداثة والذي يعتبرونه حالة النور الذي لا ينقطع ويتجدد باستمرار، ثمّ جرّوهم إلى عالم البراري والكون المفتوح، حيث لا ظلمة ولا استقرار، بل صفحات بيضاء واسعة وتيه وفراغ غير محدود، تستوي فيه جميع المبادئ والمعالم والقيم وتُقرأ طبقا لمرايا متجاورة ومتعاقبة.

وقد انطلقت مدرسة التفكيك مع الفيلسوف دريدا؛ ويعد «جاك دريدا» من أبرز تلاميذ «ليفي ستروس» ومن أنجب من خرّجتهم المدرسة الفلسفية الفرنسية في الخمسينيات. ولد في الجزائر بمنطقة الأبيار بالعاصمة سنة ١٩٣٠ من عائلة يهودية فرنسية، هاجر إلى فرنسا لإتمام دراسته وأداء الخدمة العسكرية، والتحق بعدها بمدرسة المعلّمين العليا حيث تتلمذ على «جان ايبوليت» أحد كبار الأساتذة المتخصصين في فلسفة هيغل، وسيعنى التلميذ بعد ذلك أيّما عناية بتدمير فلسفة هيغل، باعتبارها القوة المخرّبة للوعي، ومع أنه أمضى سنة في جامعة هارفارد، وقام بالتدريس في جامعة السوربون بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٤ فإنّه ارتبط اسمه بمدرسة المعلمين العليا.

---

(٥١) **حلقة براغ الشكلانية**: هي حلقة تشكلت من مجموعة من الباحثين واللغويين؛ أمثال جاكوبسون الذي هجر روسيا بعد أن زالت الشكلانية هناك بضغط الظروف السياسية، ثم التحق بحلقة براغ مقدَّما خلاصة لما توصل إليه هو وأقطاب المدرسة الشكلية، وكان بنفست ومارتنيه الفرنسيين وجونز الانكليزي ويوهلر الألماني وأعلام هذه المدرسة كمكاروفسكي وهارتفك ...وغيرهما، وقد توصلوا إلى أنماط جديدة في دراسة اللغة.(محمد عناني، **المصطلحات الأدبية الحديثة**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦، ص٧٨).

(٥٢) انظر: عبدالله إبراهيم، **التفكيك:الأصول والمقولات**، مرجع سابق، ص١٠-١٨.

(٥٣) بروتاجراس، **محاورة أفلاطون**، ترجمة ودراسة محمد كمال الدين علي يوسف، دار الكاتب العربي، القاهرة،١٣٨٧هـ-١٩٦٧، ص٥٥.

كان إلى جانب «جاك لاكان» و«ميشيل فوكو» «ورولان بارت» الحلقة الضيّقة في الهرم البنيوي، ويقف «دريدا» كحالة فريدة متميّزة، فقد حقّق شهرته الواسعة في سنوات قليلة وبأعمال معظمها مقالات ومقابلات صحفية تدور في الأغلب حول كتابات وآراء غيره من المفكّرين والفلاسفة والأدباء، لكنّها تتّصف بدرجة عالية من التفكير العميق والنقد الموضوعي(٥٤).

وقد كان للظروف التي مرّت بها فرنسا في أواخر الستينيات؛ دخل كبير في نجومية اسم «دريدا» واكتسابه لتلك الشهرة، فحين قامت ثورة الطلاب عام ١٩٦٨ (٥٥)، وانضمّ إليها كثير من الكّتاب والمفكرين والمثقفين الفرنسيين؛ رفض (لوي ألتوسير) و(كلودليفي ستروس) وهما من كبار قادة الفكر البنائي، الانضمام إلى الحركة والنزول إلى الشارع، ممّا أثار سخط أوساط كثيرة من النخب، حيث رأوا في هذا الموقف تخاذلا وعلامة على تراجع دور البنائية ومفكّريها في صناعة الحياة الثقافية والسياسية في البلاد، فالتف الشباب الجامعي حول اسم جديد ولج إلى الأحداث بحماسة كبيرة وفكر ثاقب وعقلية ذكية، حيث قدّم آراء نقدية صارمة تجاه البنائية التقليدية، ودعا إلى تجديد معالمها وأسسها ومقولاتها؛ ممّا جعله رمزا لاتجاه فكري جديد عرف بـ (ما بعد البنائية)، ولقّب أتباعه بفلاسفة الاختلاف نسبة إلى المبدأ الأول الذي جعله دريدا محور فلسفته في كتابه « الكتابة والاختلاف » الصادر عام ١٩٦٧ حيث عمل على تجاوز بنيوية ستروس وتخطّيها.

والحقيقة إن بروز «دريدا» كان قبل ذلك بسنوات، وليس للسّياسة علاقة بذلك، فقد شدّ إليه الأنظار عام (١٩٦٢)؛ حين نشر ترجمة لدراسة الفيلسوف الألماني « هوسرل» عن «أصل الهندسة» قدّم لها بمقدمة طويلة تجاوزت المائة وخمسين صفحة، وحاز الكتاب على جائزة «كافاييه»، حيث رسمت هذه المقدّمة المعالم الرئيسة لخط تفكير «دريدا» مستقبلا في كل كتاباته، وقد كان « هوسرل» قد تعرّض في دراسته لمشكلة العلاقة بين الموضوعية المقالية للهندسة؛ من حيث إن قوانين الهندسة لا تعتمد على أيّ أحداث أو وقائع تاريخية أو تجريبية، ووجودها التاريخي التجريبي؛ من حيث إن أفرادا معيّنين بالذات هم الذين يضعون القواعد والبراهين الهندسية؛ ذاهباً إلى أن الكتابة ضمن دائرة اللغة بكلّ ما تتّصف به من تجريد وابتعاد عن الشخصانية والإطلاق؛ هي التي تحقّق تحوُّل الهندسة من فكرة في ذهن عالم الهندسة إلى موضوع مثالي(٥٦).

---

(٥٤) انظر: نورس، **التفكيكية: النظرية والتطبيق** ، ص٢٥، وسلفرمان، **نصيات**، ص٣٣٨- ٣٤١.

(٥٥) أحداث ١٩٦٨ في فرنسا: هي المظاهرات الطلابية التي أطاحت بالجنرال ديغول؛ بدأت في ٢٦ أفريل في جامعة نانتيير. انظر في تفاصيل المظاهرات: محمد الشيخ، **المثقف والسلطة**، مرجع سابق، ص٥٧و٧٥.

(٥٦) انظر:دريدا، **في علم الكتابة**، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٦٦.

وبذلك كان التحليل «الفينومنولوجي»[٥٧] لهوسرل عبر هذه الدراسة؛ نقطة الارتكاز الأساسية في مسيرة تقويض بناء الفلسفة الغربية، والذي عمل على إكماله «دريدا» وقد كرّس له كل وقته، فأخرج دفعة واحدة سنة (١٩٦٧) ثلاثة كتب مهمة في هذا المجال، وُلدت معها فلسفة الاختلاف ونشرتها أمواج السيّاسة عبر أحداث الطلاب سنة ١٩٦٨، ويمكن عد كتابين من هذه الثلاثة الجسر الذي مهّد لانتشار وذيوع فلسفة التفكيك:

ألف دريدا ثلاثة كتب مهمة سنة ١٩٦٨، ويمكن عد كتابين من هذه الثلاثة الجسر الذي مهّد لانتشار وذيوع فلسفة التفكيك

- كتاب «**الكلام والظاهرة**» حيث قام بنقد نظرية هوسرل حول «العلامات»، وأسّس لسيميولوجيا جديدة تقوم على ثلاثية الأبعاد، وانتقد خاصة فكرتي الصوت والحضور[٥٨] في فلسفته اللسانية التحليلية، وهو من الكتب النادرة في إنتاج دريدا الكبير، والذي يعالج فيه موضوعا محوريّا واحدا، لأنه يأخذ في كتبه الأخرى باستراتيجية اللعب المفتوح؛ والتي تعدّ من أساسيات التفكيك.

- أمّا الكتاب الثاني: وهو عبارة عن مجموعة مقالات أكاديمية وانطباعية جمعها تحت عنوان تأسيسي، كان له شأن كبير وهو: «**الكتابة والاختلاف**» حيث أبرز فيه معالم الاختلاف الكائنة في أعمال الكثير من الكتّاب والأدباء عبر دراسة عميقة لنصوصهم، وتتردّد في صفحات الكتاب أسماء: «جون روسيه» في مجال النقد الأدبي البنائي، و«ميشيل فوكو» و«إدمون جابيه» و«ليفي ستروس» و«جورج باتاي» و«فرويد» و«هوسرل».

---

(٥٧) **التحليل الفينومنولوجي**: نسبة إلى الظاهراتية التي أسَّسها «إدموند هوسرل»؛ بحيث تتخذ فلسفته نقطة انطلاقها من صورة العالم في وعي الإنسان؛ ومن ثم فهي تنفي إمكانية النظر إليه باعتباره كيانا مستقلا عن الوعي البشري، وتسعى للوصول إلى الواقع المجسّد من خلال خبرتنا به. (انظر: محمد عناني، **المصطلحات الأدبية الحديثة**، مرجع سابق، ص٧٠-٧١).

(٥٨) **فكرة الصوت والحضور**: معناها أن الميتافيزيقا الغربية كانت تركّز على الصوت المعبّر عن اللغة، والعقل؛ مما يؤدي إلى التمركز والحضور.

لقد كانت الفلسفة من «أفلاطون» إلى «هيغل» فلسفةَ حضور؛ أي إن الوعي لا يعترف إلاّ بما يحضر لديه فيتخذ شكل الدّلالة والمعنى والقانون والهوية، فيتطابق هكذا مع مقولاته، مما يعني أن فكر الإنسان هو مركز الكون. ثم أراد «هيدغر» «وستروس» عبر فلسفة العلامات والبناء أن يضربا سياجا منيعا حول هذا الاعتقاد، غير أن الانقلاب الذي حصل بفضل (دريدا) انطلاقا من قراءة «هيدغر» فصلت بين الوجود والصيرورة، وبين التفكير والوعي، وبين الدّال والمدلول؛ مما يعني لا مركزية الفكر وتلاشي منطق القانون والهوية(٥٩).

كانت اللحظات الأولى لتأسيس فلسفة الاختلاف قائمة على ثنائيات متناقضة؛ وجود وعدم، حضور وغيّاب، مبدأ وفراغ، هوية وآخر، وقد بدا الفرق واضحا في محاولة «دريدا» عبر كتبه التوصّل إلى إثبات الآخر في بنية خارج البنيات، أو إلى إثبات فراغ لا يملأه حيّز، وإمكانية إقامة الوهم مكان اليقين، وقد أصبح بالفعل الوهم الذي بحثه دريدا من خلال الاختلاف قابلا للتداول الفلسفي والثقافي، قابلا للحوار في المحافل الفكرية، لا لشيء إلاّ لقوة وحجّة السفسطة التفكيكية، وإصرارها على مغادرة المركزية الغربية ومركزية اليقين، والتي يعتبرها فلاسفة التفكيك والاختلاف؛ مركزية بشرية خالصة خاضعة لعمليات الاستذهان وتركيب الوعي، المسكونة بالخيال والواقع والأسطورة والرغبة، فلا مناص من قبول فكرة غياب المعنى النهائي في السياق المعرفي.

وقد لاقت هذه الطروحات المتمنعة والمقاومة للمركزية والحاملة للواء الثورة الشاملة الجديدة؛ قبولا في شتى أنحاء العالم، وخاصة في أمريكا لدى نقاد جامعة ييل في الولايات المتحدة، إذ يعود الفضل إليهم في توسع المدرسة التفكيكية وتأصيل مقولاتها معرفيا ونشر فلسفتها أكاديميا وقدرتها على إعادة نمذجة العقل الغربي وفق منطق متجاوز للمركزية الحداثية؛ وخاصة لدى دي مان وهارتمان وسابير. ثم انضم كبار البنيويين الفرنسيين إليها، كالناقد الشهير رولان بارت والفيلسوفة جوليا كريستيفا وميشال فوكو... وغيرهم؛ حيث أصبحت عبر مساهماتهم المستمرة؛ المسيطرة على النقد ما بعد الحداثي في أمريكا بداية، ثم في معظم أوربا الغربية.

(٥٩) انظر مثلا في هذا الموضوع: محمد شوقي الزين، **تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص١٨٨، وعادل عبدالله، التفكيكية، ص١٣-٢٢.

كما توسع التفكيك في عدة ميادين معرفية وعلمية؛ كالأرشيف والموسيقى والتاريخ...بدعوى تلمس الحقيقة أو المعاني المحدّدة في النصوص عبر استكشاف قوانينها وممارساتها التكميلية، وقد قرن مؤسسه جاك دريدا في كتابه:«نواقيس» **«Glas»**(٦٠) نصاً عن هيغل بنص عن الأديب «جينيه» ، وفي مقالة له بعنوان «جلسة مزدوجة» **«Double session»** يطابق نصاً عن مالارميه بنصّ عن أفلاطون، كأنها عملية تحقيق لمخطوطين، متن وحاشية، فيرفق نص الهوامش وشيفراتها أو إشاراتها وحدود انتشارها بشكل عام(٦١). وهو يشير إلى مثالية غير موجودة وغير نهائية عبر إثارة التساؤلات وفكّ الاشتباكات؛ بما يعني تكوثر العلامات التي تؤدي إلى دلالات غزيرة ومتتالية، وهو منتهى طموح التفكيك:"إن الاستنطاق يبعث الروح في جميع تساؤلات المعرفة، ولكنّه استنطاق من نوع آخر يختلف عن نوع التساؤلات، وهي عبارة تعني أنه عبر التماس معنى التساؤلات وأصلها؛ يميّز الاستنطاق نفسه عن العالم المرئي، فالاستنطاق يشتغل فيما سمّاه هيدغر الإنتاج، إن انبرام **(Interevining)** المرئي واللاّمرئي، وما يَرى وما يُرى، ويَلمس ويُلمس، ويَسمع و يُسمع، ويقول ويُقال، ويَفهم ويُفهَم، إن هذا الانبرام يقيم الفضاء المتقاطع الذي يحدث فيه الاستنطاق هنا؛ إذن يوفّر الاستنطاق حياة المعرفة، وهو ليس المعرفة) (٦٢).

(٦٠) سلفرمان ، **نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية**، مرجع سابق، ص٧٩.

(٦١) المرجع نفسه، ص٧٩.

(٦٢) هيو سلفرمان، **المعنى والمرجع في فضاء الاختلاف**، جريدة الزمان، عدد ٨٦، تاريخ، ٢٠٠١/٣/١، ص٩.